

قصة

مارتا



من مجموعة قصصية "مالك" - جمال سليمان

لا أعرف يا صديقتي ما الذي جاء بك إليّ في تلك الليلة.
 كنت على أهبة الإستعداد للمغادرة، ولكن شيئاً ما قبض على يديّ وشد
 أقدامي إلى الأرض. حتى أن أحد الصبية اختطف حقيبتني وركض مبتعداً
 ولم أجرؤ على مطاردته وإعادتها. فشلت في الحفاظ عليها وكأنني عاجز
 خائر القوى.

ها أنا ذا يا "مارثا" .. يا ابنة الدير أقف مذهولاً أراقب السماء ومحطة
 القطار .. أحرق في وجوه الراحلين هل أجدني بينهم!!
 أبحث عن وجهك في غبار العائدين.
 لا أحد يشبهنا في هذا المكان.

أترنّج وأكاد أسقط لتمسك بيدي عجوز تشبه أمك "جوزفيلدا" تلك
 العجوز الطيبة التي إستحالت إلى ناقمة كبيرة عليّ لما علمت
 بمخططنا.

آه يا "مارثا" ..

كم أفتقد طعم الخبز من يد تلك السيدة.
 كم أتوق إلى تلك الطاحونة التي إلتقيتك بها أول مرة.
 كنتِ تحمّلين جوالاً من القمح وجوالاً من الشعير أثقل من وزنك.

وكنتِ كمنلة تحمل حبتي أرز وقد إختفت تحتها.
 أشفقت عليك وحملتهم عنك وكلك خجل ، فشكرتني ودعوتني إلى
 بيتكم. عرفتِ بأنني عربيّ مسلم ولم تنفري مني قلتِ لي بوضوح:
 لقد كان "لوركا" يقول للأسرة التي يعيش معها أنه سليل أسرة عربية
 كريمة. وكم وددت أن أعرفكم عن قرب.
 ضحكت وقلت لك .. هل تحبين "لوركا" ؟
 قلتِ في غنج بالغ .. إنه فتى أحلامي.
 قلت .. ولكنك لست فتاة أحلامه.
 فقلتِ .. وما أدراك؟
 قلت إنك لا تشبهين "ماريانا".
 قلت .. وهل تعرف ماريانا .. هل رأيتها؟
 قلتُ لك .. وهل رأيتِ " لوركا..... "

 ...

-2-

أكياس الطحين ثقيلة يا مارثا .. كيف تعودين بها كل تلك المسافة؟
— ليست ثقيلة إلى هذا الحد. أنت مجرد عجوز.

أضحك وأنا أترنح من ثقل الطحين ولا أنفك أداعبها:
— حدثيني عن "لوركا" ..

— ماذا تريدني أن أقول؟

— لماذا هو فتى أحلامك .. لماذا "لوركا" بالتحديد. وقد أشاعوا أنه مثلي .. طبعا هذا كلام غير مؤكد بالنسبة لي .. ولكن .. كان من الممكن أن تختاري فتى أحلام لا يجلب لك العار.

— أنت لا تفهم شيئا. هذا الـ "مثلي" كما يقولون مات في سبيل حبيبته وحريته. أعدمه الثوار القوميون إنتقاما من والده بما أنه أحد الإقطاعيين، فقد كان تاجرا ثريا. لكن "لوركا" لم يكن مثل والده. كان فقيرا معدما وأكثر منهم.

— مممم .. نعم .. ولقد كان مشهد إعدامه مشهدا بطوليا.

لم يكن يخيف الثوار أو يعاديهم .. ولكنه كان يلوم عليهم أنهم طالبوا بحق الحرية الذي سلبوه منه. أتعرفين أنني أشبهه .. لقد ظللت قرابة العامين لا أعرف النطق. وتأخرت في المشي حتى ظن أهلي أن بي مرضا. وتمكنت من خطو أولى الخطوات وأنا في سنة الرابعة. هل هذا الشبه

كاف؟؟

— أنت تحمل الكثير من ملامحه أيضا.

- لكنه متفرد .. كان شاعرا وكاتبا مسرحيا وعازفا للبيانو ومطرباً
يغني أشعاره وقصائده الشعبية.

أتعلمين .. أنا أيضاً أحب البيانو. لكني لا أستطيع العزف. أشعر أن
أصابعي ملتوية وتصيبني رعشة كلما حملت على ساعدي. لا أستطيع
العزف .. ولا الكتابة أيضا إلا قليلا.

-3-

كلما نظرت إلى ساعتى وجدت عقاربها تشير في إتجاه باب بيتك.

هكذا قضيت الكثير من الوقت وأنا أدور حول المنزل لربما تخرج لإحضار بعض قطع الخشب الذي شذبتة لها بالأمس. أعرف أن المخزن لم يعد به الكثير.

لكن الوقت متأخر جدا وأنا أنتظر في الخارج. الجو دافئ أيضا على غير العادة ولربما لن تحتاج إلى خشب الليلة .. هل ستخرجين يا "مارثا"؟
لازلت أفكر في حديثي معك عن "لوركا" و "ماريانا" ...

"كيف أستطيع أن أحبك إذا لم أكن حرا؟ كيف أهبك قلبي إذا لم يكن ملكي؟"

أفكر وأفكر في هذا الشطر من القصيدة الأخيرة قبل أن تخترق الرصاصات صدر "لوركا".

أحاول أن أطبقها الآن.

لكن هذا ليس صحيحا .. ربما ينطبق عليك أنت ..

كيف أحبك وأنا أعرف أنك لن تكوني لي. المشوار طويل جدا

والأمر يكاد يكون مستحيلا ..

أنا أحبك وأعرف ذلك جيدا .. لكني لا أعرف كيف يصلك ذلك.

ولكي تكوني لي ينبغي أن تحبيني أولاً ثم تريدين أن تكمل حياتنا سوياً
وهذا معناه أنك ستتركين خلفك كل شيء. وقبل ذلك ستراهنين
عليّ وتضحين بـ "جوزفيلدا" العجوز وبالراهب "ميناس" والدير
وخدمة العجائز في دار "ليرخيا".

ماذا عن ابن خالتك "سيرخيو"؟ .. هل تحبينه؟ هل ستتزوجين منه؟
كل تلك الأسئلة التي تعج بها رأسي وأكادُ أجن.

كيف أجعلك تحبيني!!

أيام الدراسة أوشكت على الإنتهاء، وبقائي في غرناطة لن يطول.

أمامي مهلة قصيرة كي أظفر بك.

حسناً .. يبدو أنني سأبات اليوم هنا خارج بيتك.

أنا بانتظارك "مارثا" .. هلا خرجتي ولو لدقائق فقط.

-4-

— إسماعيل ..!!!

أعرف ذلك الصوت جيداً .. صوت نسائي رقيق ينساب إلى مسامعي مثل صوت أصابع "ألبينيز" حين تداعب البيانو في كونشرتو أوبرالي شجيّ. أستطيع أن أميز نبرة هذا الصوت من بين الآلاف ولا يمكن أن أتوه عنها أبداً..

إنها "مارثا".

- "مارثا" .. أهو أنتِ؟ لقد ظننتُكِ بالداخل.

— ماذا تفعل هنا إلى هذا الوقت؟

- بل ما الذي يجعلك خارج المنزل كل هذا الوقت؟

— لقد كنتُ أزور "مارغو" الحكيمة.

- ما بك؟

— لستُ أنا. إنها "جوزفيلا" مريضة وتعاني من الحمى. رحلتُ أسألها على وصفة تهدأ من الحمى. إنها تسعُل مثل الديكّة. خشيت أن تكون مصابة بالكوليرا.

- ولم لم ترسلي في طلبي؟

— لم أرد أن أزعجك، وأعرف أنك مرهق طوال الأسبوع .. تعود من الجامعة لتقف في دُكَّان "ديميتري". ذاك اليهودي اللئيم .. آخ. أخبرني كيف تُطبقه؟

- لا بأس به .. أنا أقف ساعات من الليل نظير بضعة ليرات أتقوت منها وأنفق على دراستي. اليهود ليسوا غرباء عنا. نعيش معهم منذ زمن بعيد وحتى الآن. لكنهم موجودين بكثرة في "فلسطين" وبدأت أعدادهم تتزايد بشكل ملحوظ. إنهم يحظون بدعمٍ كبير من حكومة ملكة بريطانيا.

— تباً .. غداً سيحتالون عليكم وقد تبيعون الأهرام وستقول "مارثا" قالت لي.

ضحكت وأنا أتفقد وجهها المضيء تحت سنا القمر وكأنه مرآة.

حدقت بي للحظات ثم أشاحت بوجهها في خجلٍ بالغ.

— هل ستقضي الليل كله هنا؟ .. آه .. بالمناسبة .. شكراً لأنك شدبت الأخشاب. لم أكن أعرف أنك ستقطع كل هذه الكمية التي ستكفينا إلى أن يحل الربيع.

لم أكن أرغب بإرهاقك في يوم أجازتك.

- لا تقولي هذا .. على الرحب والسعة.

لحظات من الصمت تلفتُنا يا "مارثا" ..

أود أن تطول وتطول بلا نهاية.

فجأة صار الليل الكئيب منحة بهجة ولحظات هناء لا أريد الإنتهاء منها.

نتحدث في كل شيء وعن كل شيء إلا عن حبي لك.

نسرده عن "لوركا" و "سلفادور دالي" ..

عن "أنطونيو ماتشادو" و "بيدرو ساليناس" وأجدك هائمة في

بحورهم. تحفظين مئات القصائد الأسبانية.

سألتك كيف تحفظين كل تلك الأغاني فقلت ببراعة أنها تمثلني

لذلك أجد نفسي أتحدث عن ذاتي فقط. ليس ثمة صعوبة أن يتكلم

الإنسان عن نفسه. أعرف كيف أعبّر جيداً عن نفسي وتلك القصائد

أجدها في روعي تسكن وتنتشر حرة طليقة كشعر الغجر.

إنك غجرية أيضاً وعلى درجة من الثقافة والروعة.

لا أستطيع أن أصف حُسنك وبهائك. بشرتك البيضاء المشربة بحمرة

الورود. أو شفتيك المكتنزتين كحبتَيّ توت. أو عينيك البنيتين التي

تفضح أندلسيتك الغابرة.

كم تمنيت أن أكون مولوداً هنا .. أتصل من عروبتي ومصريّتي

لأكون مورسيكياً أندلسياً أو إسبانياً خالصاً ..

ماذا لو أنك مورسيكية أيضاً !!

أكان من السهل عليّ أن أصارحك بكل ما أحمله في قلبي؟

ربما لأننا سنكون حينها أبناء تربةٍ واحدة.

عُدتُ إلى بيتي يحملني قلبي الذي يحملك. ضاق وبكل ما فيه من سحاب
لا يجد مطراً يروي ظمأه.

-5-

سأخبرك سراً. أتعرفين يا "مارثا" أنني في مثل هذا اليوم من العام قبل الماضي أو الذي قبله .. لا أذكر بالتحديد، كنت قد ارتكبت حماقة كبيرة جدا وظننت أن الله سوف يعاقبني بالموت فوراً كأدنى عقوبة. تلك الحماسة التي كانت بمثابة الجريمة.

لكنني على قيد الحياة الآن ومنذ عامين ربما أو أكثر ولازلت أتساءل متى سينزل الله بي العقاب. الجريمة توارت وهواجسي لم تتبدد وصرتُ بأئساً جداً لأن العقاب تأخر.

- لكنك لا تعرف. الموت ليس عقاباً يا سيدي. الحياة مع هذا الشعور هي العقاب. أنت تعاقب نفسك بيد الله. ولكن أخبرني ماهي الجريمة التي إستحققت كل ذلك؟

— لقد كذبتُ عليكِ يا "مارثا".

- ... ٩٩٩

ورحتُ أحكي لك عن خطيئتي وبي خوف شديد من أن تكرهيني وترحلين مع أول نداء لـ "جوزفيلدا". لقد كانت بداية النهاية. ونهاية قصتنا التي لم تبدأ بعد.

لماذا لا أصدقُ أن المرأة لا يمكن أن تغفر لحبيبها الخطيئة الأولى.

لكني لم أعتقد أنك تُكنين لي المشاعر. لا أعرف لماذا قررت أن أحكي لك ذلك السر الذي خبأته في صدري وابتلعتته وهلت عليه أطنانا من الصمت. ربما كنتُ بحاجة إلى أن أحرك المياه الراكدة التي أراها في عينيكِ وفي قلبك. أردت أن أكسر ذلك الجليد الذي يحجزكِ عني. لكنني كنتُ كمن ألقى جالوناً من الزيت في فوهة البركان ثم وقف ينظر إلى الأبخرة الصاعدة قبل أن تنفجر في وجهه. أكتسى وجهك بحمرة الغضب. نفضتِ ثوبك سريعاً وقمت من على التلّة تركضين نحو البيت وأنا أرقبُكِ في ذهول.

نزل عليكِ الأمر كالصاعقة. هذا بعيد تماماً عن أفكارك وعن مخيلتك وعن كل ما توقعته من "إسماعيل" المسلم. لكنه ليس بعيداً عن "إسماعيل" الشرقيّ بأي حال من الأحوال.

الرجال يخونون يا "مارثا".

"لوركا" أيضاً كان خائناً .. هذه هي الحقيقة التي لا تريدين تصديقها. سيأتي يوم وتثبتُ لك الأيام أن ما فعلته كان شيئاً عادياً.

على الأقل أنا أعترف بذنبي وأنتظرُ عقابي. لكن العقاب الأقسى أن يكون رحيلك عني على هذا النحو.

لا أعرف على أي شيء سأندم أكثر. على صدقي معك الذي أفقدنيكِ ٩٩ أم على خطيئتي التي لم أكفر عنها حتى الآن.

ها أنا أرحل يا "مارثا" قبل مواعيدي ..

الأيام التي ظننتها قليلة ولن تكفيني كي أظفر بك لم أحتج إلى أن أكملها معك.

سبعة أيامٍ وأنت لا تخرجين وترفضين مقابلي والجميع يعرف السبب. الجميع يتساءل عن السبب. "جوزفيلدا" تقول أنك مريضة وترفضين الطعام.

"ديميتري" هو الآخر يسألني عنك. يقول أنه لم يرك منذ الأسبوع المنصرم حين اشتريت منه الخردل والزيت وأعواد الثقاب.

تركته وجمعت أشياءي وقطعت تذكرة قطار إلى بلنسية حيث سأبحر منها إلى قبرص ومنها إلى السويس.

ربما لا تودين رؤيتي. أنت محقة فأنا نفسي لا أطيعُني. لا أطيعُ خطيئتي وحمقي وغضبك مني.

ولكني أقف الآن مكبلاً يا "مارثا" ..

فاتني موعدُ القطار وتخلفتُ عن رحلتي. وفقدتُ حقيبتتي ولم أحرِّك ساكناً.

كأنني أنتظركُ أنتظر شبحاً من بعيدٍ يلوحُ لي ..

إنه يتراءى لي كظل امرأة إسبانية في أوائل العشرينيات ترتدي الغواييسكا الحمراء وتلفُ حول رأسها المانتور الأبيض.

إنها الألوان التي تحبينها يا "مارثا" ..

تقترب رويدا رويداً ..

أُمعنُ النظرُ أكثر،

أراقب الخطوات التي تشبه مشيتك.

تقترب أكثر ..

أعاود النظر وهي تقترب ..

"مارثا" ...

تمت

مالك

مجموعۃ قصصیت

جمال سليمان